سيرًا على الأقدام

لا تملك جيوبنا البائسة سوى بضعة جنيهات لا تسمن ولا تغني من جوع، لكننا قررنا السفر، تبدو فكرة جنونية، لكننا سنفعلها، إن لم يكن أمامنا سوى الجنون سنجنّ، هكذا قال لسان حالنا ونحن نناقش أمر السفر سيرًا على الأقدام..!

قال (عاصم) وهو يرتشف الشاي بطريقته المقززة:

_ رأيتم يوسف الرشيدي عائدًا من ليبيا ب(شيء وشويات).

قلت بنفاد صبر:

_ كيف نذهب إليها ليبيا هذه ونحن لا نملك مليمًا..؟!

رد (عابد) المعروف بين ثلاثتنا بجنونه:

_ (سلكاوي) كغيرنا، يرحب أهلها بالجميع، اسمعوا مني.

أمّن (عاصم) على كلامه قائلًا:

_ فرصة بما أننا في مطروح، هل نعود البلد بخيبتنا هذه.

لا نعرف كم من الكيلومترات علينا قطعها حتى نصل إلى ليبيا، لكننا سنقطعها، لا نحمل شهادات تقود عقولنا، لكننا نحمل من الفقر واليأس ما يجعل الحياة والموت يستويان في عيوننا، ونملك سواعد بإمكانها هدم الجبال، لن تملَّ كثيرًا إن قطعت تلك الصحاري.

بدأت رحلتنا مع خيوط الفجر، نسير ساعة ونجلس أخرى، حتى جنَّ الليل، فافترشنا العراء، ثم استيقظنا مذعورين على صوت يشبه كركرة الشيشة، إنه شاب يقود دابة محملة بالبضائع المهربة، يؤنس نفسه بالغناء في وحشة الظلام والصحراء.

أشرقت الشمس، استأنفنا الرحلة نحو الجانب الآخر من تلك

الأرض، بعد مسيرة ساعة، مر بنا رجل من أهل البدو الطيبين، يقود سيارة نصف نقل، تصطفّ فيها بعض غنيمات له، ركبنا معه حتى وصل البدوي حيث قصد، وتركناه لنكمل مسيرتنا نحو الغنى والثروة.

بعد مسيرة يومين، لاح الفرج من بعيد، وصلنا الحدود، بقي أن نعبر الأسلاك الفاصلة بين البلدين، الظلام يحتضن المكان، فلا نرى شيئًا، يجب أن نتدثر بذلك الظلام حتي لا يمسك بنا حرس الحدود، مرت ثلاث ساعات، كنا ندور خلالها حول أنفسنا، ونعود إلى المكان نفسه من جديد، ولما أكل الإعياء ما تبقى من قوانا، استلقينا فلم نشعر بأنفسنا إلا وشمس الصباح تلفح وجوهنا.

ها هي الأسلاك التي أعيانا البحث عنها ليلًا، على بعد خطوات منا، لكن ضوء النهار كشف سترنا، إن حاولنا المرور الآن سيمسكون بنا بلا شك، وإن مكثنا سيُمسك بنا أيضًا، بما أن النتيجة واحدة، إذن لا مفر.

اقتربنا من الأسلاك محاولين تجاوزها، غير أن عين الحارس لم تكن لتخطئنا.

_ اتركنا الله يرضى عنك يا دفعة، خذ ما تطلب واتركنا نعبر.

_ لا يمكن.

_ خمسة جنيهات كاملة، اعمل معروف يا دفعة.

_ مستحيل، مستحيل.. لا بد أن أسلمكم للشاويش.

ثم همس الحارس في آذاننا وهو يجرجرنا: اطمئنوا الشاويش بلدياتكم، وسيكرمكم.

قضينا نصف النهار في انتظار جناب الشاويش حتى ينظر في أمرنا، والحق أننا أُكرمنا في ذلك المكان كرمًا لم نتوقعه، أكلنا وشربنا حتى الشبع..!

جاء الشاويش، صعيدي كما قال الحارس، تركنا نعبر، وخطونا أول خطوة في بلد البترول الجميل، وبدأ كل منا يحلم بما ينتظره فيها من غنى، وما سيجني من مال، ورأى كل واحد منا في نفسه (يوسف الرشيدي)..!

بعد مسيرة يومين في شوارعها، وبعد أن وجدنا عملًا عند أحدهم، تمكن الأمن من القبض علينا، قال (عابد) محاولًا تخفيف حدة البؤس والأسى:

_ يوسف الرشيدي لم يكن وجه فقر مثلنا، عقد الفقر مع وجوهنا صفقة رابحة..!